

القسم الأول

التأليف التاريخي في مصر

في القرن التاسع عشر

obeikandi.com

تطور التأليف التاريخي

في مصر الإسلامية

بدأت حركة التأليف التاريخي في مصر الإسلامية بـ ابن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر والأندلس » ، ثم نشطت هذه الحركة بعد ذلك نشاطاً عجيماً لم تشهده بلد من البلاد الإسلامية ، وأنتج المؤرخون المصريون إنتاجاً ضخماً وألفوا في معظم فنون التأليف التاريخي ، وظلت هذه الحركة نشيطة عصرًا بعد عصر ، وتتابع المؤرخون المصريون قرنًا بعد قرن ، وكل منهم يضيف إلى جهد سابقه ، إما تكملة أو تذييلًا أو إضافة أو ابتكارًا ، حتى إذا كان القرن الخامس عشر الميلادي وجدنا أن حركة التأريخ في مصر الإسلامية بلغت أوجها ووصلت الذروة من حيث وفرة الإنتاج وتنوعه ، ومن حيث عدد المؤرخين العظام الذين ظهوروا في هذا القرن .

ولعل السمة الظاهرة التي تميز مؤرخي مصر في هذا القرن

أنهم كلهم مؤلفو موسوعات ، وأنهم جميعاً وافرو الإنتاج ، ويمكن أن نشير هنا إلى أسماء بعضهم من أمثال : ابن خلدون ، والمقرئى ، وابن حجر ، والعيني ، وابن تغرى بردى ، وابن الصيرفى ، والسخاوى ، والسيوطى ، وابن إياس^(١) ... الخ .

وكان آخر من عرفته مصر من المؤرخين فى نهاية العصر المملوكى : ابن إياس ، وابن زُنبُل الرمال ، وهما مؤرخان لهما قدرهما ، فقد شهدا نهاية عصر المماليك — عصر الاستقلال — ، وبداية العصر العثمانى — عصر التبعية والغزو الخارجى — ، وقد أرخا للفتح العثمانى فى كتابيهما تأريخاً له قيمته .

وقد شهد الشرق الأوسط الإسلامى فى بداية القرن السادس عشر تغيراً أساسياً ، فقد نجح الأتراك العثمانيون فى القضاء على الدولة المملوكية فى مصر والشام ، وفى الانتصار على الدولة الصفوية ، ونتيجة لهذا الانتصار المزدوج ضمت مصر والشام ، كما ضم العراق إلى أملاك الدولة العثمانية ، وأصبحت القسطنطينية بعد انتقال الخلافة الإسلامية إليها مركز الثقل ، ومحور الارتكاز فى العالم الإسلامى .

ولعل هذا يفسر لنا بعض التفسير ركود الحركة العلمية بوجه

(١) راجع : محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

عام - وحركة التأليف التاريخي بوجه خاص - في مصر طيلة القرون الثلاثة التي خضعت فيها للحكم العثماني ؛ فقد أصبحت القسطنطينية مركز النشاط العلمي في العالم العثماني ، فهي مقر السلطان والخليفة ، بل هي عاصمة الدولة الإسلامية ، والدولة كانت تركية اللسان ، فمن البديهي إذن أن تنشط حركة التأليف بين علماء الأتراك ، وباللغة التركية ، وأن تضعف حركة التأليف باللغة العربية ، يضاف إلى هذا أن السلطان سليماً الأول كان قد صاحب معه حين خروجه من مصر عدداً من كبار العلماء وكل ماهر في فن أو صنعة ، كما حمل معه معظم ما كانت تخرجه مكاتب القاهرة من نوادر الكتب والمؤلفات .

لهذا لا نعجب إذا لاحظنا أن حركة التأليف التاريخي التي ظلت مستمرة متصلة منذ ابن عبد الحكم إلى ابن إياس قد انقطعت خلال هذه القرون العثمانية الثلاثة ، فلا نجد مؤرخاً مصرياً له شأن أو قيمة بعد ابن إياس ، اللهم إلا إذا اعتبرنا صوفياً كالشعراني^(١) مؤرخاً حين يكتب كتابه « الطبقات الكبرى » في تراجم الصوفية^(٢) ، ويستمر هذا الفراغ ملحوظاً إلى أن يقرب

(١) انظر : توفيق الطويل : الشعراني - مجموعة أعلام الإسلام - ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

(٢) حقيقة لقد ظهر في مصر في العصر العثماني عدد من المؤلفين الذين كتبوا في التاريخ ، ولكنهم في جلهم لا يستطيعون أن يرقوا إلى مرتبة =

= من مؤرخى القرن الخامس عشر أو القرون التى قبله، ومن المفيد - ونحن نتبع هنا تطور الحركة التاريخية قبل القرن التاسع عشر - أن نشير إلى بعض هؤلاء المؤرخين وإلى إنتاجهم .

فهم محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م) وتوفى سنة ١٠٨٧ هـ ، وله ثلاثة كتب تاريخية لازالت مخطوطة ، هى :

(أ) الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة ، وفيه يؤرخ لولاية مصر وقضاة العسكر فى العصر العثمانى إلى سنة ١٠٥٤ هـ .
(ب) عيون الأخبار ونزهة الأبصار ، وهو تاريخ مختصر لمصر والدول التى تعاقبت على حكمها إلى آخر عصر المماليك الجراكسة .

(ج) المنع الرحمانية فى الدولة العثمانية ، وفيه يؤرخ لسلطين آل عثمان وينتهى إلى سنة ١٠٢٩ هـ (انظر ترجمته فى : محمد توفيق البكرى : بيت الصديق ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ، ص ٧٣ - ٧٨ ؛ وإبراهيم العبيدى المصرى : عمدة التحقيق فى بشائر آل الصديق ، القاهرة ١٢٨٧ هـ) .

ومنه : الإسحاقى المنوفى (محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح) ، وهو من رجال القرن الحادى عشر (١٧ م) كذلك ، ترجم له المحبى فقال : إنه كان قاضيا فاضلا عالما مؤرخا ، كثير النظم ، صحيح الفكرة ، وله تاريخ لطيف ورسائل كثيرة ، قرأ ببلده على شيوخ كثيرين ، وكان يتردد إلى مصر ، وأخذ بها عن أكابر علمائها ، وتوفى فى نيف وستين وألف ببلدة منوف ، وكتابه التاريخى سماه « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » ، ورتبه على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة ، وأرخ فيه لمن ولى مصر من حكام منذ الفتح العربى إلى أوائل القرن الحادى عشر ، وانتهى من تأليفه سنة ١٠٣٣ هـ ، وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة طبعات مختلفة فى السنوات ١٢٧٦ و ١٢٩٦ و ١٣٠٠ .

ومنه الجزرى الحنبلى (عبد القادر الأنصارى) وهو من رجال القرن العاشر (١٦ م) وقضى معظم حياته موظفا فى إدارة الحج بالقاهرة ، وصحب قائلة الحج من مصر إلى الحجاز سنوات كثيرة ، وألف فى سنة ١٥٥٤ م =

= كتابا بعنوان «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة»، والكتاب يشبه أن يكون مذكرات شخصية، وقد ضمته مؤلفه معلومات قيمة كثيرة عن أخبار الحج ومنازله وكيفية الرحيل والنزول والإقامة، وأرخ فيه لمن حج بالنامس من الخلفاء والصحابة والأمراء والأعيان من مختلف البقاع والأماكن، كما شرح مناسك الحج على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل، ورتب الحوادث فيه على السنين الهجرية، وتوجد من هذا الكتاب نسخة ناقصة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، ومنه نسختان لم يشر إليهما بر وكلان، إحداها في المكتبة التيمورية بالقاهرة، والثانية - وهي أكثر أهمية لأنها بخط المؤلف - وتوجد في مكتبة الأزهر تحت رقم ٢٨٤٤ تاريخ. انظر أيضا: (Jacques Jomier : *Le Mahmal et la Caravane Egyptienne des Pelerins de la Mecque, XIIIe et XXe Siecle, Le Caire 1953*) ونحب أن نشير هنا كذلك إلى أن المصريين كانوا هم السابقين إلى وضع كتب تترجم لرجال قرن بأكمله، بدأ هذا النوع من كتب التراجم ابن حجر حين ألف كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، ثم أتى بعده تلميذه السخاوي فألف كتابه «الضوء اللامع في تراجم أعيان القرن التاسع».

ثم انقطع هذا اللون من ألوان التأليف التاريخي من مصر في العصر العثماني، وانتقل إلى أيدي المؤرخين السوريين، فألفوا كتباً ثلاثة ضخمة للترجمة للرجال الذين عاشوا في قرون العصر العثماني الثلاثة: العاشر، والحادي عشر، والثاني عشر: أرخ الغزى (نجم الدين محمد بن محمد) لرجال القرن العاشر في كتابه: «الكواكب السائرة في تراجم أعيان المائة العاشرة».

وأرخ المحبسي لرجال القرن الحادي عشر في كتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر».

وأرخ المرادى لرجال القرن الثاني عشر في كتابه: «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر».

وحاول مؤرخ مصري (من رجال القرن الرابع عشر الهجري) هو =

القرن الثامن عشر من نهايته ، وتبدأ في مصر محاولة للاستقلال
والانفصال عن الدولة العثمانية على يد علي بك الكبير^(١) ، وتمهد
هذه اليقظة إلى نهضة علمية تظهر على استحياء ، ويظهر عدد من
العلماء والأدباء والمفكرين ذوي نشاط ملحوظ ، فنسمع عن
السيد محمد مرتضى الزبيدي^(٢) — صاحب تاج العروس في شرح
القاموس ، وشرح كتاب الإحياء للغزالي ، وغيرها من الكتب
الوفيرة العدد — ، وعن شيخ الأزهر الشيخ الشبراوي^(٣) الذي
يقول شعراً فيه لمحة من لمحات التجديد ، وعن الشيخ إسماعيل

= أحمد تيمور إتمام السلسلة فيما بعد بالترجمة لرجال القرن الثالث عشر ،
ولكنه لم ينجز من مؤلفه هذا إلا قسماً يسيراً هو الذي طبع بعد وفاته بعنوان :
« تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر » ، القاهرة
١٩٤٠ . انظر : جمال الدين الشيال : الحركات الإصلاحية ومراكز
الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث ، ج ٢ ، مصر والشام ؛ القاهرة ١٩٥٨
(١) انظر : محمد رفعت رمضان : علي بك الكبير ، القاهرة ١٩٥٠
وما به من مراجع .

(٢) انظر ترجمته في : (الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ٢ ،
ص ١٩٦ - ٢١٠ ، حوادث سنة ١٢٠٥ هـ) و (الشبلنجي : نور الأبصار
في مناقب آل البيت المختار ، بولاق ١٢٩٠) و (علي مبارك : الخطط
التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٩٣ - ٩٤) و (الشيال : الحركات الإصلاحية
ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٨ ،
ص ٤٥ - ٧٩) .

(٣) للشيخ الشبراوي ترجمة وافية في « عجائب الآثار » للجبرتي .

الحشاش^(١) - الشاعر النثر - ، وعن الشيخ حسن الجبرتي^(٢) - العالم الرياضى الفلكى - ، وعن الشيخ حسن العطار^(٣) ، وهو شيخ آخر من شيوخ الأزهر له ولع بقراءة الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية وخاصة فى علمى التاريخ والجغرافيا ، ثم نسمع أخيراً عن عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المعروف .

والجبرتي هو الذى سيصل ما انقطع من حبل الحركة التأليفية التاريخية ، فهو أول مؤرخ مصرى يظهر بعد ابن إياس وابن زنبل ، وبعد أن خلت مصر من المؤرخين الكبار ثلاثة قرون كاملة .

(١) و (٢) و (٣) هؤلاء الشيوخ تراجم وافية فى « عجائب الآثار » للجبرتي .